النّدوة العلمية: الصّحراء في الرواية العربية المعاصرة يوم 24 أفريل 2024.

عنوان المداخلة: الصحراء؛ قيمة سردية فاعلة في الرواية العربية المعاصرة.

Title:

the desert; An effective narrative value in the contemporary Arabic novel

إعداد: د. حميدة قادوم/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ الرتبة: أستاذة محاضرة–أ–.

البريد الالكتروني: gadoum.hamida@hotmail.fr

الملخص:

تمثل الصحراء في الرواية العربية المعاصرة انزياحا جماليا وثقافيا أملته طبيعة تشكّل الرواية في العصر الراهن، كمحاولة من الكاتب لإثبات هويتها العربية، وممّا لا شك فيه أنّ الرواية عندما ظهرت لأول مرّة ظهرت في الآداب الغربية، وعالجت قضايا المجتمع الغربي، فاتخذت من هذا الأخير سبيلا للسرد الفنّي، فكان البحر، والمقهى، والشارع هي الأفضية المهيمنة على السرد الروائي العربي اقتداء بالنّموذج الغربي. وظلّت كذلك ردحا من الزمن إلى أن ظهر لفيف من المبدعين –وهم قليل – وراهنوا على الاختلاف الذي بإمكانه أن يصنع كينونة وهوية الرواية العربية، فاستعانوا بالصحراء بما تحمله من دلالات، وتناقضات، وتحدّيات بالنّسبة للإنسان العربي.

–فكيف كان السبيل للتّحول من السرد المدني إلى السرد الصحراوي؟ وكيف تحوّلت الصحراء في الرواية العربية إلى قيمة سردية فاعلة؟ وما هي أبعادها الفنّية والثقافية؟

الكلمات المفتاحية: الصحراء – الرواية– القيمة– الفاعلية.

Summary:

The desert in the contemporary Arabic novel represents an aesthetic and cultural shift dictated by the nature of the novel's formation in the current era, as an attempt by the writer to prove her Arab identity. There is no doubt that when the novel first appeared, it appeared in Western literature and addressed the issues of Western society, so it took Western space as a way of narrating. Artistic, so the sea, the café, and the street

were the dominant environment in the Arab novel narrative, following the Western model. It remained like this for a period of time until a group of creative people appeared - and they were few - and bet on the difference that could create the entity and identity of the Arab novel. They sought help from the desert, with its connotations, contradictions, and challenges for the Arab person.

-What was the way to shift from the urban narrative to the desert narrative? How was the desert transformed in the Arabic novel into an effective narrative value? What are its artistic and cultural dimensions?

Keywords: desert - novel - value – effectiveness.

مقدمة:

تمثل الرواية اليوم الجنس الأدبي الأشهر والأكثر مقروئية في الوطن العربي، فقد تقدّمت على الشعر الذي ظلّ لسنوات طويلة ديوان العرب، ولعل هذا الاهتمام المتزايد بالرواية كجنس سردي يرجع إلى احتوائها موضوعات وانشغالات الانسان المعاصر، ومجارات القضايا الراهنة، ولأن الرواية غربية المنشأ فقد كانت بداياتها الأولى متمثلة للنّموذج الغربي، وهذا ما أثار قريحة عدد من المبدعين الذين التفتوا إلى قضايا الهوية والانتماء ووجدوا أنه من الضروري جدا خلق نموذج عربي أصيل متمثلا في جنس الرواية، فلم يجد المبدع حينها بُدا من الرجوع إلى موطنه الأصلي (الصحراء) بما تتميز به من رحابة وغرابة وتواتر الحكايا والقصص الخيالية، فاتخذها باعتبارها فضاء سرديا متخيلا ثريا، وولدت الرواية الصحراوية معتمدة على أسرار الصحراء وطقوسها الأسطورية وعالمها المتميز باللّباس والطعام والعادات وغيرها.

وعليه تحاول هذه الدّراسة أن تميط اللّثام على تمثلات الصحراء في الرواية العربية المعاصرة، اعتمادا على نماذج رواية متنوعة على غرار روايتي "التبر" و"المجوس" لإبراهيم الكوني، وروايتي "الأشجار واغتيال مرزوق" و"النّهايات" لعبد الر حمان منيف، وغيرها مما تستدعيه الدراسة وتشير إليه.

1-الصحراء باعتبارها فضاء سرديا:

في البدء، يعرّف ابن منظور الصحراء في لسان العرب بأنها" الأرض المستوية في لين وغلظ دون القفر، وهي الفضاء الواسع لا نبات فيه، وأصحر المكان أي اتّسع، وأصحر الرجل؛ نزل إلى الصحراء، وأصحر القوم إذا برزوا إلى فضاء لا يواريهم."[1]

هذا عن المعنى اللغوي الذي يشي بأن الصحراء فضاء يتميز بالاتساع والفراغ والعراء، أمّا الحديث عن الصحراء في مجال السرديات العربية، وبالأخص في الرواية المعاصرة، فهو رهين التّصنيف الذي يُمنح لها باعتبارها فضاء للسرد ومتخيلا روائيا، وليس باعتبارها مكانا جغرافيا فحسب؛ فالفضاء الذي تحاول الدّراسة الإحاطة به هو ذاك الذي" يتشكل من خلال العالم القصصي، يحمل معه جميع الدلالات الملازمة له، والتي تكون عادة مرتبطة بعصر من العصور حيث تسود ثقافة معينة أو رؤية خاصة للعالم وهو ما تسميه جوليا كريستيفا " أيديولوجيم " العصر"[2]

ونظرا لأهمية الفضاء في بناء النّص الروائي فقد أولاه الروائيون أهمية قصوى، وتعاملوا معه باعتباره أهم عنصر من العناصر الفاعلة التي تشكل النص السردي، وقد مثّلت الصحراء فضاء خصبا لنسيج الحكايا والقصص الروائية ذات الأثر المتميز، نظرا لما تحمله من دلالات وحمولات معرفية وفلسفية ورؤى ثقافية وتاريخية تخبر عن هوية الانسان العربي الذي يعود أصله إليها.

وقد "تعددت دلالات الصحراء في الرواية العربية بتعدد الكتابات الروائية فقد ركز بعض الكتاب على وصف العلاقة الموجودة بين الانسان والطبيعة الصحراوية، وركّز البعض الآخر على

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة ص ص ح ر.

[2]- حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2000، ص54.

جبروت الصحراء وصعوبة إخضاعها ووصفها البعض بالسجن وباللعنة وربطها آخرون بالموت، فالصحراء متغيرة باستمرار عصية على السيطرة، ملعونة، هي الفاعل الحقيقي وليس الانسان، إنّها سجن القاطنين فيها"[3]

ويجمع أغلب الكتاب والدّارسين أنّ الصحراء هي الفضاء الذي صنع هوية الرواية العربية، بعد أن ظلّت طيلة عقود منذ أول ظهور لها تقلد النّموذج الغربي على مستوى الموضوعات والشخصيات والأمكنة وغيرها، فلا أحد ينكر أّن أصل الرواية غربي، وأنّ الرواية العربية قد مرّت بمراحل كثيرة حتى بلغت ما هي عليه اليوم، فقد تجاوزت الرواية العربية المعاصرة مرحلة المراهقة وأعلنت عن ميلاد رواية بهوية جديدة عربية صرفة، والذي صنع هذا النّموذج الأصيل هو فضاء الصحراء بعد أن" تلاشت الصورة القديمة الغامضة عن الصحراء، واتّجهت إليها الأنظار وتزايد الاهتمام بها وأقبل عليها الروائيون باعتبارها –بكرا روائيا– لم تطأه الأقلام، وموردا فنّيا خاما زاغت عنه الأبصار، ولم تقصده من قبل الأفكار."[4]

وهذا الاهتمام المتزايد بالصحراء يشي ولا شك بتغير النظرة إليها من كونها فضاء للموت والضياع والتلاشي والتيه إلى كونها فضاء للحياة، والانتعاش الاقتصادي والمادي خاصة بعد اكتشاف ثرواتها كالبترول والغاز الطبيعي، هذا من جهة، وتمثل الصحراء من جهة أخرى فضاء متميزا للمقاومة والصبر والجلد الذي يتميز به سكانها، إنها نمط حياتي مختلف تماما عن باقي الأمكنة، نمط يخضع لقوانينها الخاصة، وأسلوب حياة خاص على مستوى اللباس، والمعتقد، والثقافة بل إنها في كثير من الأحيان تعبّر عن فضاء للأسطورة والعجائبية، إنّها موطن الجن والعفاريت بالنسبة للبعض، وموطن للسحر والشعوذة، كما أنها موطن الكرم والصبر والمقاومة.

---

[3]– صالح ولعة وآخرون، المتخيل الصحراوي في الرواية العربية، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة، 2015/2014، ص5.

[4]– المرجع السابق، ص7.

بهذه المعاني تعددت دلالات الصحراء في نظر المبدعين والدارسين على السواء، لهذا فهي تعتبر فضاء خصبا تنسلّ من رحمه الحكايات والقصص والأحلام، فهي كتابة منفتحة على فضاء مفتوح، وهذا الفضاء يمثل حقلا معرفيا وأسطوريا ثريا ينهل منه الكاتب، ليقدم للمتلقي موضوعا يعبر عن انتمائه العربي، ويحيل إلى حكايات عربية وقصص واقعية استطاعت أن تغير مدلول الأشياء في الصحراء، وتعلن عن تحديات جديدة خاضها الانسان المعاصر لأنّ الصحراء ينظر إليها اليوم بأنّها" غنية بتراثها الثقافي، وبإنتاجها الرمزي، فإذا كان صحيحا أنّ الصحراء أرض قاحلة جرداء، فهي قد كانت دوما أوسع فضاء للتّأمل والتّفكير، وكانت دوما أفضل موطن للأساطير والأشعار."[5]

وقد لجأ لفيف من المبدعين إلى هذا الفضاء الرحب، واتخذوه مادة سردية فاعلة في تأثيث الرواية بمختلف المواضيع والحكايات، حتى غدت رواية الصحراء فضاء حافلا بمختلف المعارف والثقافات، بل أصبحت الرواية السّجل الحافظ لكثير من الأحداث التي جرت في المناطق الصحراوية، وقد أثبتت أنها تحتوي على مدن أثرية منذ مئات السنين، وهذه المدن تخبر عن حضارات وتاريخ الأوائل، وقصصهم ونهاياتهم، على غرار مدينة تدمر، وبقايا سد مأرب، ومدينة الأهجار، وغيرها.

فكل مدينة من هذه المدن الصحراوية تروي حكاية تاريخية ضاربة في القدم، ومن الروائيين الذين اتخذوا الصحراء مادة سردية فاعلة في كتاباتهم نجد الروائي الليبي إبراهيم الكوني في (التبر) و(المجوس) و(نزيف الحجر) و(ناقة الله) و(طفولة الزمن شيخوخة العدم) ليصبح أشهر من كتب في فضاء صحراوي، وأما عبد الرحمان منيف، فتتجلى الصحراء في نصوصه (مدن الملح) و(النهايات) و(الأشجار واغتيال المرزوق)، وعند صبري موسى في (فساد الأمكنة)، وعند ميرال الطحاوي في (الخباء)، وعند الحبيب السايح في (تلك المحبة) و(تماسخت)، وعند رشيد بوجدرة في (تيميمون)، وعند الحاج أحمد صديق في (مملكة الزيوان)، وعند غسان كنفاني في (رجال في الشمس) و(ما تبقى لكم). هذه أهم العناوين وعلى قلتها إلا أنها استطاعت أن تنحو بالرواية العربية منحى جديدا وأصيلا في الوقت نفسه.

---

[5]- المرجع السابق، ص72.

فالصحراء بالنسبة للروائي اليوم هي موطن الحكايات الأولى، وزاده لمعرفة تراثه وانتمائه، إنها فضاء مليء بالميثيولوجيا والعجائبية والقصص الأسطورية التي كان يستأنس بها في ذلك الفضاء شديد الاتساع، هذا من جهة، وتمثل تاريخه ومقاومته لقساوة الطبيعة وفراغ الزمن من حوله من جهة أخرى.

2-الصحراء باعتبارها فضاء أسطوريا: يظهر فضاء الصحراء باعتباره فضاء للأساطير والخرافات في أغلب الروايات التي اتخذت الصحراء مسرحا لأحداثها، ولعل الرجوع إلى توظيف الأسطورة والعجائبية في رواية الصحراء مرتبط بمخيلة الكاتب وبحثه الدائم في حفريات المعرفة الخفية وعالم الغيبيات التي يؤمن بها قاطنوا الصحراء . فالصحراء فضاء مليء بالغموض والغرابة" والرواية بوصفها نمطا سرديا ، حاجة ميتافيزيقية تقول بالممكن والمستحيل والأسطورة باعتبارها المعين على نفخ الحياة أو بث الروح في عالم الخلاء، ما دامت نظاما دالا من الدرجة الثانية، توظف الدلالة الأولى لخدمة المعنى المختار من طرف الكاتب (سيميولوجيا) والخلاء أو (الصحراء) باعتباره شيئا مرادفا للحياة، يحمل كنوزا ما ورائية لا تنال إلا بالطلب الذي ينتج عنه الألم للوصول إلى سعادة مرجوة."[6]

والمتمعن في نصوص إبراهيم الكوني الروائية يلحظ هذا الحضور المكثف لعنصر الأسطورة، وامتداد السرد في فضاءات مفتوحة من الصحراء كالخلاء/الفلاة، ويظهر هذا جليا في رواية "المجوس" التي يقوم السرد فيها على البنية الأسطورية على مستوى الحدث والشخصيات ، ويقوم الحوار فيها بين مخلوقات تتصرف بغرابة وهي مخلوقات غيبية غالبا، ومن الأحداث الواردة في هذا النّص الأسطوري أنسنة الجوامد وتفعيل وجود الغيبي ومحاربته للقوى الإنسانية والانتصار عليها، كما هو الحال في النّقاش الذي دار بين جبل "إيدينان" وملك الجن، ومطالبة هذا الأخير بامتلاك مكان الجبل للإقامة فيه مع قبيلته من الجن وانفراده بالمكان كلّه" **قبل إيدينان وباع روحه ، جاءت قبائل الجن وسكنته**

[6]-أمينة برانين، الصحراء في الرواية العربية، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ص80.

وضعت على صرحه المربع المهيب عمامة أبدية من الغمام وحرّمت على غبار القبلي الاقتراب من وطنها الجديد."[7]

تنوعت الأساطير وتعددت في رواية "المجوس" حتى أصبحت فضاء من الحكايات العجائبية التي نسجت خيوطها في متخيل الكوني لدرجة تصبح الصحراء بسببها مقابلا للأسطورة والخرافة. ولعل طبيعة الحياة في الصحراء واتساع الفضاء وانفتاحه على الكثبان الرملية تحيط به من كل مكان كانت دافعا لاستحداث هذه الرؤية في السرد العربي، وغير بعيد عن موضوعة الاتساع والحرارة والرمال تظهر قيمة سردية فاعلة في رواية الصحراء تتمثلها قيمة الماء/الحياة ؛الكنز المفقود في غيابات الصحراء، لذلك كانت **أسطورة الماء/البئر** حاضرة بقوة في النّص نفسه، وقد منحه الكوني في هذه الرواية تفسيرا أسطوريا خصّه بسكان الصحراء، فربط وجود البئر باعتقاد أهل الصحراء أن وجوده يدل على سقوط نجم أو شهاب من السماء فتتفتق فوهة في الأرض وينتج عنها بئر مائي يرده التائهون في الفلاة، يقول **"شقّ الظلمات نجمان. أحدهما اتّجه شرقا...الثاني انهار نحو الغرب...بشارة، هدية السماء إلى الأرض، حلمة الصحراء تفتقت عن بئر في الشرق وأخرى في الغرب. في الجوف تتحرك النداوة. يتململ الماء السلسبيل. يفلق الصخر المرمري ويعيد الحياة لقبائل المهاجرين الذين ركعهم العطش في القارة العارية. رفع الشيخ يديه وقرأ تعويذة تبعه الضيف فتمتم بتميمة بلغة "الهوسا""**[8]

يمثل الماء في الصحراء الكنز الذي لا يحيا الانسان إلا به، وهو الكنز الذي يتنافس للظفر به ولامتكاله، وقد خبر الكوني أهمية هذه المادة وعرف قيمتها، فهو ابن الصحراء ويعرف خباياها وحاجات سكانها، لذلك لجأ إلى توظيف هذه الأسطورة التي نسجها خياله وهو يستحضر الصحراء بقساوتها وجبروتها لتصبح هي" المجال الواسع الذي يستطيع الانسان أن يظهر عليه إبداعه وخياله الفتان باعتبارها العدو الذي يلاحق الانسان منذ وجد على الأرض بقساوتها ، بجبروتها بقحطها،

---

[7]- إبراهيم الكوني، المجوس، ج1 ص56.

[8]- المصدر السابق، ص249.

فالإنسان حينما يريد مواجهتها إن لم يكن لديه وسائل وأسلحة ملموسة فهو يستعمل خياله لإبعاد الضرر"[9]

وقد أكد إبراهيم الكوني توظيفه للمتخيل الصحراوي في نصوصه المختلفة، فأحيا أسطورته عن الماء، وأكّد أنّ البئر كما هي من عطاءات إله السماء للمهاجرين والتائهين في الفلاة فقد تكون عقابا أيضا للمعتدين على قداسة هذا المورد المائي الذي يعتبر كنزا ربانيا للخلائق، فأشار إلى اختلاف الناس من أجل امتلاك البئر وتقاتلهم عليها فأخبر بأنّ "**قدر الحلمة أنّ موقعها جاء مكشوفا في العراء، لأن النّجوم أرادت أن تجعلها قبلة تنقذ كل العابرين، ولكن عطايا السماء تفسد بمجرد أن تمسها يد الانسان، تقاتل عليها الناس وتبادلها نفوذ القبائل، ففقدت البكارة ولحقتها لعنة الممتلكات**"[10]

إن المتمعن في المتخيل السردي عند إبراهيم الكوني على مستوى كل النصوص الروائية التي أنتجها يلحظ كيف يربط بين الفضاء الصحراوي والأسطورة ، ومن أساطير العرب التي ذاع صيتها في الفضاء الصحراوي حكايات الجن والعفاريت التي يرتبط وجودها بأماكن محددة من الصحراء، وبعضها شاع أنها موطن الجن ولا يقربها إنسي إلا هلك، ولا يزال الاعتقاد بوجود هذه المناطق ونسبتها إلى الجن في الصحاري العربية، ولايزال الناس يتخوفون منها ويتجنبونها، ففي رواية "التبر" تمتد صفحاتها على سرد حكاية الجن وامتلاكه لمفاتيح الشفاء، مقابل الذهاب بعقل المريض وامتلاكه بعد شفائه، وجاء السرد في هذه الرواية فيه من الغرابة والعجائبية بل حتى الخوارق التي أثث بها الكوني نصه، فبدأت حكاية الجن منذ مرض الأبلق/ جمل أوخيد الأصيل الذي أهداه له زعيم آهجار، وإصابته بداء الجرب الذي كان يذهب بحياته وحسنه.

---

[9]- صالح ولعة وآخرون، المتخيل الصحراوي في الرواية العربية، ص114.

[10]- إبراهيم الكوني، رواية المجوس، ج1، ص205.

*آسيار: يعتقد أنه بقايا السلفيوم، وهو نبات أسطوري يعطي قوة هائلة، انقرض من ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد، ويجمع المؤرخون القدماء أنه كان دواء سحريا لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم؛ وكان ملوك ليبيا قديما يصدرونه إلى مصر وما وراء البحار ويعتقد الكثيرون أن فيه يكمن سر التحنيط إذ استخدمه الفراعنة لهذا الغرض (الهامش من رواية التبر ص39)

تدخل الشيخ موسى الذي يعد نفسه من الأولياء الصالحين وأشار برأيه على أوخيد قائلا:"**الكلام بيننا ولكن شفاء جملك في آسيار*، لا تضحك علي واسمع كلامي في تلك السهول أوثق المهري جيدا حتى لا يفر واتركه يرتع يوما أو يومين وسوف ترى، ثم كرر بلغة غامضة: لا تنس أن تعقله جيدا، نعم. آسيار في القبيلة مرادف للجن، والجنون، من ذاقه جن سواء أكان ذلك حيوانا أو انسانا، وخشية الأهالي من هذا النبات الخرافي متوارثة، وأول ما يعقل الولد الحياة الدنيا وتسلم له أمر الجديان يقولون له" إياك أن ترعى الجديان في قرعات ميمون. هناك آسيار. في العشبة ألف دواء ولكنها تمر كلها من باب الجن، الجنّ هو الذي يملك المفتاح إلى الشفاء من الألف داء، إذا استولى عليك شفاك من أي مرض ولكن ما فائدة أن تشفى من الداء إذا كنت ستفقد عقلك؟ من فقد عقله فقد نفسه، إياك من آسيار في قرعات ميمون""**[11]

إن القول باستحواذ رواية الصحراء على الأساطير خاصة عند إبراهيم الكوني نابع من كون الرواية تطمح في قول لغز الوجود(القائم) على المزج بين الثنائيات ، والأسطورة بوعيها لذاتها ، ورغبتها في تخطي وظيفتها.[12]وهذا ما بنيت عليه روايتي المجوس والتبر، وما حكاية أوخيد مع المهر الأبلق وتجربته للمداواة بالعشبة السحرية آسيار ،وتدخل الجن في شفائه إلا ضربا من ضروب توظيف الأسطورة باعتبارها مادة سردية خام تبعث الروح في النص الروائي وتنفتح به على تأويلات متعددة وممتدة على الفضاء الصحراوي الذي ينبئ بالتيه حينا وبالحياة حينا آخر" ففي التيه تتوحد مثلا الحياة...وتتفسخ داخل الكتابة والصحراء وتفاصيل حياة الأفراد يخوضون صراعا قاسيا ضد الطبيعة وضد أنفسهم، ناهضين داخل التاريخ والحكاية والأسطورة ،ومتوحدين داخل فضاء هو مزيج من السحر والشعوذة"[13] ويصرّ الكوني على توظيف العنصر الأسطوري في رواية المجوس بداية من

---

[11]- إبراهيم الكوني، التبر، 39.

[12]-ينظر، سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000، ص165.

[13]- محمد جاسم الحميدي، البطل الملحمي في روايات منيف، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1 ، د ت، ص62.

التّصدير الذي يحيل القارئ إلى البعد الأسطوري والمتخيل السردي الذي يتبعه فكتب في تصديره **"واحات "واو" في الصحراء ثلاث. واو الكبيرة. واو الناموس، واو حريرة، واو الأخيرة واحة مفقودة، لا يعثر عليها إلا التائهون الذين فقدوا الأمل في النجاة. تسقي العطشان والضائع ولا تنقذ إلا من أشرف على الموت. ويجمع أولئك المحظوظون الذين فتحت لهم أبوابها وتمتعوا فيها بالضيافة والعطاية والبهجة. أنهم لم يروا في الأحلام مدينة تفوقها جمالا أو ثراء، لم يدخلها إنس إلا وخرج منها محملا بكنز يغنيه عن الناس والحاجة إلى أن يموت، ولكنهم نبهوا أيضا إلى عدم جدوى البحث عنها، فما أن يخرج الضيف من أسوارها حتى تختفي، ويتوارث أهل الصحراء رواية تقول أن البحث عنها يجري منذ آلاف السنين." من أسطورة الطوارق"**[14]

إن كل ما ذكره الكوني عن مدينة واو هو من الأساطير المتجذرة في عمق الذاكرة الصحراوية، كما مثلت واو في الرواية حلم كل صحراوي منذ ولادته وأمنيته الدخول إليها والانعاش في كنفها بالشرب والأكل والاطمئنان، وذلك مقابل طقوس معينة تمليها قداسة هذه الواحة المتفردة، وتتمثل في قدرة الصحراوي على التخلي عن الكبرياء، المتمثل في أول الأمور، وهي نزع اللثام، ثم نزع الثياب، ثانيا كما يفعل الصالحون(مثلما ورد على لسان الراوي) يقبل الأرض أو الرمال قبل بلوغ الواحة؛ هذه الطقوس هي امتحان الإرادة الذي يمر عليه الصحراوي لدخول الواحة الموعودة التي يحلم بها ابن الصحراء منذ أن يولد لغاية موته، والتي ينال فيها التشريف بالزيارة والأكل وكل ما يحلم به.[15]

3-الصحراء باعتبارها تراثا فلكلوريا وتاريخا وثقافة:

شكّل السرد الروائي المنفتح على فضاء الصحراء سجلا ثقافيا وتاريخيا ولغويا وحافظا للتراث الصحراوي في أغلب النصوص، وأصبح معبرا عن قيمة سردية فاعلة لذلك قال عنها محمد الصايغ"

---

[14]- إبراهيم الكوني، المجوس، ج1، ص95.

[15]- ينظر، أمينة برانين، فضاء الصحراء في الرواية العربية، ص63.

هي سجلهم، سجل الأفكار والأحلام، تاريخ من لا تاريخ لهم، تاريخ الفقراء والمسحوقين الذين يحلمون بعالم أفضل، وستكون حافلة بأسماء الذين لا أسماء لامعة لهم، سوف تقول كيف عاشوا وكيف ماتوا وهم يحلمون، ولابد أن تقرأ الأجيال القادمة التاريخ الذي نعيشه، تاريخ العودة إلى الصحراء لا في كتب التاريخ المصقولة، وإنما في روايات الأجيال." [16]

لا شك أن الرواية عموما هي الحافظ لتاريخ الأمم والشعوب، لذلك استطاعت الرواية الغربية أن تحفظ تاريخ الأمم الغربية فيما لاحظنا تنكر العرب لتاريخهم فترة زمنية طويلة خاصة عندما كان النموذج المهيمن في الرواية هو النموذج الغربي باعتباره الأصل الذي ولد فيه هذا الجنس الأدبي، غير أن النقاد والمبدعين استفاقوا من نومهم العميق وخبروا أن الرجوع إلى فضائهم هو رجوع إلى أصلهم إلى هويتهم العربية، فانتقلوا إلى فضاء الصحراء الثري بالبطولات العربية والملاحم الكبرى، إنها(الصحراء)" التراث الذي لا يمثل نصبا تاريخيا ولا هوية واحدة، بل يمثل سلسلة الهزائم والانتصارات ، إنها ليست تاريخ الهوية الفردية وإنما هي تاريخ الوجود."[17]

ونظرا لأهمية التاريخ في بنية الرواية العربية عموما، ورواية الصحراء خصوصا، فقد اعتبره عبد الرحمان منيف قيمة سردية بانية في نسيج نصه "الأشجار واغتيال مرزوق" يقول متسائلا" **أين هو التاريخ؟ دائما هناك هابيل مقتول وقابيل قاتل، ثم جاء الطوفان والديانات والفتوحات وشمل القادة العسكريون الأتراك عيون الخلفاء وبنوا سمراء، ووضعوا السم في طعام الصغار...ماذا نقرأ في التاريخ؟ نقرأ : كان عقبة بن نافع وهو يخوض مياه الأطلسي بحصانه...وتنتهي هذه المرحلة وتأتي مراحل الجواري والقصور، البرامكة والقرامطة.**" معرفة التّاريخ ليست حكرا على السجلات التاريخية وإنّما يبين هذا القول أنّ التّاريخ يؤخذ من السرد أيضا وإن كان فيه من التّخييل ما فيه إلا أنه يوجه عقل المتلقي ويدفعه للتساؤل عن الأشياء الخفية.

---

[16]– محمد الصايغ، ثنائية المكان، الاغتراب في الأدب الرواقصصي، د س، ص341-342.

[17]– سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، ص56.

ومن مظاهر تخليد التاريخ في رواية الصحراء، ما ورد في رواية التبر للكوني من سرد بلغة التافيناغ التي تعتبر الأصل عند القبائل الطوارق، وقد وظفها الكوني قائلا على لسان أوخيد بطل الرواية:

" آسد ينكرد أمود تكفي تيزداج

إذ شاغت تاجنين بتجر تيزداج"[18]

وهذه الأبيات مما كان يستعين بها الفرسان المسافرون في الفلاة، ويعتبرونها كتعويذة ضدّ الوحشة يتحصنون بها من شرور الصحراء، وتعني: " عندما أقبل أمود استقبلناه بمهاري الحرب، وأعطيناه فرسانا لا يخطئون الهدف" ذكر الكوني في الهامش أنّها مطلع قصيدة طويلة لتمجيد الزعيم أمود في حملاته لصد الغزاة الفرنسيين.

ومما ورد توظيفه كموروث صحراوي في رواية "التبر" هو وصف الألعاب الصحراوية ذات الطابع الفولكلوري، حيث تتسابق الإبل وتتدرب على الرقص أمام الحسان، وقد عمل أوخيد في الرواية على إلحاق مهره الأبلق بحلقة التدريب، وأجاد الراوي في وصفها فتتراءى للقارئ كأنّه يحضرها بنفسه، يقول: "**بدأ الاستعراض بالتشكيلات الثنائية، بادر فارسان رشيقان من الجهة الغربية أولا، فانطلق فارسان في مقابلهما من الناحية الشرقية، وتقاطعا بجوار حلقة الرقص، وكوفئا بعاصفة من الزغاريت تهيأ أوخيد للانطلاق بجواره وتألق شاب من الأتباع معمما ب "تجولموست" ومطوقا بحزام جلدي بديع ، يجلس في سرج منمنم مثبت على ظهر مهري رمادي أنيق. الشاب سيرافقه في منطقة العبور(...) انطلقا متلاصقين، ثابتين، متكبرين، متناسقين، منسجمين، فعاش أوخيد في هذه المسافة القصيرة الفاصلة بين العراء الممتد غربا حتى حلقة الغناء في الوسط، دهرا من السعادة.**"[19]

---

[18]– إبراهيم الكوني، التبر، ص7.

[19]– المصدر نفسه، ص10.

ومن الموروث الصحرواي بعض المعتقدات التي آمن بها سكان الصحراء قديما " **في مدخل الجبلين المتقابلين، في خلاء لا ينتهي، وقف نصب المجوس في صدر ربوة وحيدة. في الزمان القديم لم يظنوا أنه صنم. كان الضريح مزارا للجميع. حتى الفقهاء وعلماء الدين. أجمع الجميع أنه ولي شهد بداية الفتوحات. بل قالوا إنه أحد الصحابة مات عطشا في الصحراء وهو يجاهد في سبيل الله، فقصده الرحل في الصحراء، يأتون خلسة أو يجيئونه زمرا. ينحرون له القرابين ويسفحون دم النذور ...**"[20]

إن المتأمل في بنية النص الروائي في التبر يدرك كيف استطاع الكاتب أن ينسخ خيوطه ويمزج بين التاريخي والأسطوري والفولكلوري والعقدي معلنا عن نص وليد فضاء صحراوي تعددت دلالاته وتنوعت مكوناته، إن الصحراء بهذا المفهوم تصبح مجالا خصبا لحياة مختلفة، حياة يسعى فيها الانسان إلى مقاومة قساوتها وتحدي طبيعتها واتساعها بحكايات أسطورية وألعاب فولكلورية وملاحم بطولية، وهذا التوجه الذي انتهجه الروائي العربي في رواية الصحراء يندرج ضمن صنوف التجريب التي عرفها الأدب العربي عموما.

خاتمة:

وبعد هذه الفسحة بين ثنايا النصوص الصحراوية يمكننا أن نخلص لجملة من النتائج:

- ✓ مثلت الصحراء مادة خام ومجالا خصبا للسرد الروائي المعاصر، وانفتحت على موضوعات وطقوس وعادات متنوعة تميزت بها الصحراء كفضاء للسرد الروائي.
- ✓ استطاعت رواية الصحراء عند عدد من الروائيين أن تخلق لنفسها هوية عربية صرفة مختلفة تماما عن النموذج الغربي الذي ظل يتحكم في نصوصنا العربية.
- ✓ كشفت رواية الصحراء عن طبيعة بعض المعتقدات والعادات التي لا يزال سكانها يؤمنون بها حتى الوقت الحالي.

---

[20]– المصدر نفسه، ص29.

- ✓ تغير مفهوم الصحراء في الرواية العربية المعاصرة من مجرد فضاء جغرافي طبيعي إلى فضاء مفتوح على الأساطير والحكايات الخرافية والملاحم البطولية.
- ✓ استطاعت تيمة الصحراء أن تكون قيمة سردية فاعلة في نسيج النّص الروائي وجعلت منه نصا بكرا ذو هوية عربية منفتحا على الحياة بدل الموت، وعلى المقاومة بدل الاستسلام، وعلى السرد بل الصمت في ظل الاتساع المكاني الذي تتميز به الصحراء كواقعة جغرافية.
- ✓ أثبتت النصوص الروائية محل الدراسة أن إبراهيم الكوني من الروائيين الذين أبدعوا في سرد الصحراء وربما يرجع ذلك لطبيعة تكونه وانتمائه الصحراوي.

المصادر والمراجع المعتمدة:

***المصادر:**

1-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة ص ص ح ر.

2-إبراهيم الكوني، التبر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ط3، 1992.

3-إبراهيم الكوني، المجوس، ج1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، ط3، 1997.

***المراجع:**

4- حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2000.

5- صالح ولعة وآخرون، المتخيل الصحراوي في الرواية العربية، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة، 2015/2014.

6-أمينة برانين، الصحراء في الرواية العربية، رواية المجوس لإبراهيم الكوني نموذجا، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن.2010.

7- سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000.

8- محمد جاسم الحميدي، البطل الملحمي في روايات منيف، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1 ، د ت.

9-حمد الصايغ، ثنائية المكان، الاغتراب في الأدب الرواقصصي، د س.